

عروض لكتب

Habib – Allah Mansouri, *La Kabylie dans les écrits français du XIX^e siècle*, Alger, ENAG Editions, 2011

تظهر أهمية كتاب حبيب الله منصورى "القبائل في الكتابات الفرنسية للقرن 19م" في كونه يسلط الضوء على "المجتمع القبائلي" كما فهمه وكما لاحظته عدد من الكتاب والعسكريين الفرنسيين خلال بدايات الحقبة الاستعمارية، حيث تم تسليط الضوء على القوى الحقيقية المتحكمة في هذا المجتمع، الدينية منها والاقتصادية بالخصوص. ومن جملة المواضيع المتطرق إليها في هذا الكتاب، ما يخص مفهوم "الأسلمة السطحية والجوهر المسيحي"، أين ظهر لهؤلاء الملاحظين الأجانب أن الإسلام في القبائل كدين ليس له جذور عميقة، رغم حضور المرابطين الذين كان لهم مهمة نشر الرسالة القرآنية، لا يتعدى، في هذا المجال، الإسلام في نظرهم الصيغة التقليدية والمعتادة للتوحيد، كما لا يوجد في الحياة اليومية "للقبائل" تعصب للإسلام، ولا يظهر هذا التعصب إلا في حالة ما إذا استثير من طرف قوة أجنبية غير مسلمة.

و ضمن هذه الكتابات الفرنسية، يوجد من يعتبر أن القرآن لدى "القبائل" مجرد وثيقة ثانوية في إدارة المدينة والأسبقية ممنوحة إلى عاداتهم، حيث يورد صاحب الكتاب شهادة كل من دوماس Daumas ودوفو Devaux والتي جاء فيها ما يلي: "إن الخنزير عند القبائل ليس محرما لحمه كلية، فهم يكتفون برمي جزء صغير منه يعتبرونه هو المقصود بالتحريم"، كما يختلف "القبائل" عن المسلمين كونهم ميالين إلى حرمان المرأة من حقوقها مع وقوف المرابطين من هذه التجاوزات موقفا سلبيا غير مبالي.

وحول أصل المعتقدات والممارسات الدينية في القبائل، فهناك ميل إلى محاولة إثبات أن هناك أصل مسيحي لدى هذه المجموعة البشرية، الشيء الذي يسهل تسميهم من جديد، حيث لاحظ دوفو وضع "القبائل" للصليب من خلال الوشم، كما وأن هناك أصل وثني في ممارساتهم ومعتقداتهم، وقد استنتج آخرون بأن محاولة تسميهم "القبائل" لا يمكن أن يولد إلا التعصب الإسلامي أما حول "الأصل الأجنبي للمرابطين"، فقد ظهر عدد من الطروحات منها من يعتبر أن

إسبانيا (الموريسكيين) هي أصل مرابطي تلك المنطقة، ولهذا السبب تم إقامة علاقة بين الموريسكيين والمرابطين وفق ما توصل إليه كل من دوفو وأوكبيتان واللدان أظهرت سهولة استقرار المرابطين الموريسكيين في منطقة القبائل، نظرا لتحكمهم في العلوم وعلوم الدين (علوم دنيوية وعلوم دنيوية). ولكن هناك من رفض هذا الطرح (الأصل الأندلسي للمرابطين) من أمثال لوتورنو A. Letourneux و أنيتو A. Hanoteau وحول "نمط انخراط المرابطين في المجتمع القبائلي"، فقد ساد الرأي القائل أن من أسباب اندماج المرابطين في "القبائل" هو تحكمهم في علوم زمانهم، والدين لم يكن إلا عاملا ثانويا في اندماجهم الاجتماعي. وأدرك المرابطون مدى تحكم تملك الأرض على "القبائل"، فتبنوا موقفا لامباليا منها، وهذا الموقف مكنهم من أن يصيروا حكما موثوقا فيه. ومع الوقت صار المرابطون ملاكا للأراضي. ومن أجل المحافظة على مكانتهم التحكيمية أصبغوا تلك الملكية بصيغة دينية. إن الطابع الديني للمرابطين ليس إلا سطحيا، بغرض التمييز عن الجماهير. وبالنسبة لـ دوماس، فقد كان للمرابطين سلطة أكبر من سلطة الأمناء. كما أن الطابع الحيادي للمرابطين جعلهم بمنأى عن الحروب الدائرة بين "العشائر القبائلية". ويرى دوفو أن هناك سلطتان: سلطة المرابطين الدينية وسلطة "التجمعات" السياسية، علما أن سلطة الأوائل أكبر وأقوى. ويرى كارات Carete أن المرابطين لا يملكون سلطة أكبر من "التجمعات"، لأن سلطة المال أقوى من سلطة الدين. وعن وضعية "المسجد والزاوية" في المنطقة، فيبقى المسجد مكانا محايدا والذي عنده تنتهي جميع المنازعات. ويعتبر أوكابيتان H. Aucapitaine أن إنشاء المساجد في منطقة القبائل، هو لأغراض سياسية أكثر من كونه لأغراض دينية. أما بالنسبة لـ دوماس، فإذا كانت منطقة "القبائل" لا تعرف في تلك الفترة انتشار الجوع والتسول، فذلك راجع إلى دور الزوايا، فالزواوية هي رمز الكرم والاستضافة. إلا أن أونوتو ولوتورنو، حاولا أن يجردا الزوايا من خاصية الكرم والجود، ففي نظرها، تستعمل الزوايا الكرم والاستضافة كوسيلة من أجل جلب وإدخال مزيدا من المنفعة والمداخيل المادية.

إن ملاحظات وطروحات العسكريين والكتاب الأجانب مهمة بالنسبة للدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية وحتى التاريخية اليوم. واختلاف الطروحات وتناقضها في كثير من الأحيان يدل على أن الملاحظة والوصف

الإثنوغرافي لم يكونا أساس تلك النتائج/الطروحات، بل أن كل من التأويل والإيديولوجيا كان لهما دور في صياغة هذا الموقف أو ذاك من جماعة/مجتمع "القبائل". ولا يمكن أن ننفي انخراط تلك الطروحات في المشروع الاستعماري الواسع.

محمد حيرش بغداد



متون

مجلة دورية أكاديمية محكمة تصدرها كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية
والإنسانية بجامعة د. الطاهر مولاي سعيدة . الجزائر

العدد الخامس : ديسمبر 2011



العنوان: مجلة "متون". كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة د. مولاي الطاهر.
ص ب: 138

حي النصر سعيدة 2000 الجزائر الهاتف: 048 47 76 88 فاكس: 048 47 76 88 .
البريد الإلكتروني: moutoun2010dz@yahoo.fr الموقع الإلكتروني: www.univ-saida.dz